

باطل الأباطيل

بقلم : محمد حسن عبد الله

« ولكن .. هل كان أمامي غير هذا الموضوع ؟ حضرة المفتش .. العجوز الطويل الأعرج .. مثل سيمافور غمرة ، مصمم على أن تكون موضوعات التعبير مستقاة .. هكذا .. مستقاة ! من البيئة .. وبعد غد .. العيد ، والموضوع : قصة يتيم يوم العيد !؟ مبسوط يا حضرة المفتش !؟ موضوع فسيح يرمح فيه الحيات ، وتنفس فيه المراهقات عن أحزانهن .. بيئة ايه يا حضرة الزناتى خليفة؟! أين هي البيئة؟! اننا هنا فى مساكن المدرسات لا نرى الا القمر فى السماء ، وعم أبو جاسم » حارس البناية على الارض ، ويمر اليوم بعد اليوم ، والاسبوع بعد الاسبوع ، ولا تمتد أعيننا ولا آذاننا الى أكثر ما امتدت اليه حين هبطنا من الطائرة ! »

وعادت نوال تنظر الى تل الكراسيات أمامها ، وهي تقيسه بنظراتها ، وتقسمه على أيام عطلة العيد ، وتحلم بأن تستقبل أيام المدرسة ، بعد انتهاء العطلة ، وليس عندها شغل بايت !! وحاولت أن تجعل نصيب يوم العيد من الكراسيات أقل من أنصبة الأيام الأخرى ، حتى تشعر بشيء من الفراغ .. بأن هذا اليوم غير كل

للمرة العشرين كتبت التلميذات فى كراسياتهن ، « قابلت الطفل وهو باكى » وللمرة العشرين أيضا ، وضعت نوال خطا أحمر تحت كلمة (باكى) وشطببت الياء ، ووضعت كسرتين تحت الكاف !! وأطلقت نفسا حبيسا مجهدا ، يمتزج فيه الضيق من اللغة ، التى تحذف وتضيف دون منطق معقول ، بالضيق من الطالبات السلاتى تكرر منهن هذا الخطأ بعينه ، وما تظنه الا سيتكرر فيمابقى من الكراسيات .. والتل لم يختل بعد ، على الرغم من أنها أخذت منه حتى تصلبت أصابعها على القلم ، ورقصت الكلمات أمام عينيها . وعضت شفتها بشيء من الندم ، وهي تنحو على نفسها باللوم ، فلو أنها اختارت موضوعا آخر ، لما تحتم أن تذكر التلميذات هذه الكلمة اللعينة ، ويتكرر منهن الخطأ فيها !! حقا .. يجب أن تتمتع المدرسة بنوع من الحدس قوى ، فتتخيل ما ستكتب تلميذاتها فى الموضوع قبل أن تعلنه ذكاء الذكيات ، وغباء الغبيات ، وسخافة عقولهن .. ويجب أن تضع فى اعتبارها بعض التراكيب اللغوية التى من المحتمل أن تعترض طريق التلميذات أثناء التفكير !

الأيام ٠٠ لكن : هل هو هنا غير كل
 الأيام ؟! وخفق قلبها لأيامها السالفة في
 وطنها ، قد مر عليها خمسة أشهر كانها
 دهر طويل ، انها لا تكاد تصدق انها
 ستري شارعهم مرة أخرى ٠٠ كم تخشى
 عليه أن يضيع من ذاكرتها ، لذلك تفكر
 فيه كل يوم ، وتذكره عند الغروب
 خاصة ، وقد اكتسحته الشمس بأشعتها
 المصفاة ، وانتشر فيه الصبيان والاطفال
 يلغظون ويمرحون كأنهم سرب من
 العصافير ٠٠ هؤلاء يتقاذفون الكرة
 الشراب ، التي أصابتها مرارا في كتفها
 عند عودتها من الكلية في ذلك الوقت ،
 وأولئك يخططون أرض الشارع
 بالاحجار ، ويتقاذفون بأرجلهم الزاحفة
 كسرة من البلاط !! لقد كان هذا المنظر
 النابض يختفي يوم العيد ، لم تكن تدري
 هل يذهب سرب العصافير الى أماكن
 أخرى يلهو بها يوم العيد ، أم انها هي
 ٠٠ نوال ، التي كانت تشغل عن التسلية
 بهم ؟! لكنها تذكر جيدا ، يوم آخر عيد
 قضته في الوطن ، تذكره لحظة لحظة .
 لقد جاء حسنى ابن خالتها ليهنئهم
 بالعيد ، في الظاهر ، وليجلس بقربها
 ساعات في واقع الامر . جاء تسبقه
 ضجته المرحه ، وهو يهنئ اخواتها
 الصغيرات متمنيا لهن أمنيات احمر
 وجهها . هي عند سماعها ، حتى اذا وضعت
 يديها بين يديه ، سكنت ضجته ، وانعقد
 لسانه ، كأنما انقطع التيار الكهربى
 فجأة عن مذياع في مقهى . لكن ابتسامة
 واسعة ظلت تكسو وجهه ، ولم يقل لها
 أكثر من الكلمة التقليدية المحفوظة « كل
 سنة وانت طيبة يا نوال » .

وحدقت نوال في أذرع المروحة
 المبسوطة في سماء الغرفة ، والنسمة

المتسللة من النافذة الزجاجية المفتوحة
 تحركها في بطن رتيب ، جاءها صوت
 « أبو جاسم » عند باب المساكن ينادى
 كلبه ، ويعبث بأصابعه في مفتاح مذياعه
 الترانزستور ، فتختلط الأصوات
 والأنغام . ثم أطبق السكون مرة أخرى ،
 والتفت عينها بالظلام عبر النافذة ،
 فعاد صوب حسنى ، الهادى الخجول في
 تلك اللحظة ، يتردد صدهاء : كل سنة
 وانت طيبة يا نوال . وتمثلت لها أمها ،
 وهي تدخل عليهما عائدة من المطبخ ،
 تفوح من ثيابها رائحة الشواء ، وقد
 تهملت لرؤية حسنى وأقبلت عليه ،
 فترك يد نوال ، والتفت الى خائنه مهنتا ،
 فبادرته وهي تقبله في خده : خذ بنت
 خالتك ، لتهنى أختى بالعيد . كان هذا
 ايذانا لنوال بأن تخرج مع حسنى
 منفردين لأول مرة . ولقد خرج معها ،
 وسارا في الشارع يلغهما الصمت ٠٠
 كانت الشمس المصفاه تكتسحه بأشعتها ،
 ولم يكن سرب العصافير موجودا ، ولقد
 تمنى أن يوجدوا ، وأن تصيبها الكرة
 في جسمها ، حتى تجد هي ، أو يجد
 حسنى ما يقوله ، لكنها - ببراءة -
 استفادت من عدم وجودهم ، فقالت ،
 وصوتها لا يطاوعها : ياسلام !! الشارع
 من غير أطفال ، هادى ونظيف ، صالح
 لأداء مهمته . هنا استرد حسنى
 شيطنته ، وقال بسرعة لا يسكاد يتبين
 معها مرمى كلامه : كأننا لن نضيف الى
 أطفال شارعنا عددا آخر ؟!! وفتحت
 نوال حقيبتها ، وأخرجت منديلا مسحت
 به طرف أنفها ، وأهداها ، ووضع
 حسنى يديه في جيبي سترته ، وغرقا
 في الصمت من جديد ، لم ينقذهما منه
 الا صغورهما الى الاتوبيس ، وقد أتاح

له ذلك أن يمس خصرها برفق وهو يحميها من ضغط الزحام !! البيئة !! البيئة هناك حيث الزحام يا حضرة سيمافور غمره الرسمى ، حيث يحس القلب خفق القلب . ليس أمامي هنا الا: وحيد أبويه كان يستحم على الشاطئ . وكاد يفرق لولا أن أنقذه شاب قرى شكره الوالدان شكرا جما . . . صوري هذا الحادث بقلمك . أو : استمعت الى قصة من المذياع وأعجبتك لحصيتها بقلمك ، أو على الاكثر : الأم مدرسة اذا أعددتها !! أم يريد حضرة الزناتى خليفة أن أعطي التلميذات مواضيع من بيئة مسكن المدرسات ؟! ان الامر على هذه الصورة يبدو أكثر معقولة ، فهي البيئة الوحيدة التى امتزج بها . . . وأدركها ما أروع ذلك حقا : صوري بقلمك معركة كلامية بين سعاد مدرسة التربية الفنية ، وفاطمة مدرسة الحساب ، سببها ضياع ملحق مجلة حواء!! تحدثنى عن العقد النفسية التى تتمتع بها الاستاذة سلوى نتيجة لوجود ثلاثة أمتار من الجوبير الابيض فى حقيبة السفر ، ستصنعها فستان زفاف عقب عودتها . . . وصممت أفكارها لحظة ، ثم عادت وقد سرت قشعريرة خفيفة فى جسمها . . . صوري قصة حب مع إيقاف التنفيذ !! نعم . . . هذا أجود ، انه من حياة مدرسة المادة ذاتها ، كيف أن طفل على مدرسات المواد الأخرى ؟!

وانصفق باب بعيد ، فى آخر الممر الممتد أمام الغرف المتجاورة ، فكانما انصفق على صفحة من الأفكار ، وقلب صفحة جديدة ، فتنبتهت نوال للقلم الاحمر ما يزال فى يدها ، واحدى الكراسيات بين يديها ، وعن يمينها تل

أشبعته شطبا وتصويبا . وأشبعها مذل وارهاقا ، وتل آخر ماتحسبه سينتهى . الا وقد أجهز على ما فيها من القدرة . . . فعادت تطلق نفسها حببسا وهى تزفر : لا فائدة . . . لا مفر !! وجرت عينها على عنوان الموضوع ، فعرفت فيه خط تلميذتها « غنيمية » . . . اليمامة الصحراوية الوديدة ، فأحست بارتياح شديد وهى تذكر وجه « غنيمية » الاسمر المستطيل قليلا ، وعينيها السوداوين الواسعتين ، وشعرها الفاحم الذى جدلته فى ضفيرة واحدة ، ممتدة الى أردافها اللطيفة ، الحديثة الوجود . . . كم تمنى لنفسها مثل هذا الشعر ، ومثل هاتين العينين . . . كم قرأت من الشعر العربى عن عيون المها ، لكنها كانت تعتبر هذا الشعر أيام الكلية ضمن المقرر ، يحفظ ، ثم ينسى . . . وظلت تجهل عيون المها الى أن رأت غنيمية ، فالتمست العذر للشعراء ، وحاولت أن تذكر شيئا من شعرهم . . . وعاد الى مخيلتها وجه تلميذتها ، وتصورتها غزالا صغيرا نافرا ، يتوالت من حولها ، وله هاتان العينان . . . وذكرت اليوم الاول الذى ارتفعت فيه غنيمية من تلميذة عادية ، الى صديقة أثرية عندها . . . جاءتها فى غرفة المدرسات ، وكانت وحيدة ، وقالت لها : اننى أحب الانفراد بنفسى ، وأبكى ، وأخشى من تأثير ذلك على المذاكرة ، وأنا أحبك ، وأحب أن تأخذى بيدي .

كانت هذه أول كلمة توجه اليها كانسانة ، وليس كمدرسة ، منذ وصلت هذه المدرسة ، فتطلعت الى وجه تلميذتها ، فرأت عيون المها ، ورقة الغزال ، فأمسكت بيدها فى رفق وتحبب وهى تقول : لا تساعدى نفسك على



عن العين .. بعيد عن القلب !!
واكتشفت نوال ، انها ثرثرت مع
تلميذتها أكثر مما تسمح به ظروفها .
فتوقفت فجأة ، وتنهدت ، دون أن ترضى
التطلع الواضح على قسما «غنيمة» ،
لكنها منذ ذلك اليوم ، صارت صديقة
لها .. انها لا تمارس حق الشكوى الا
معها ، فلو انها شكت حسنى الى زميلة
من المدرسات لتحول الامر الى اشاعة
ومذلة . لكن غنيمة .. بيئة ثانية ،
بيئة مختلفة . وجذب نظرتها الشاردة
شريط طويل من المصائبيح الصفراء
المضيئة ، يمتد مع الطريق الدائرى
الذى ينتهى عند المطار .. ما كان أجمل
النور الاصفر حين يكون تشكيلا بديعا
مع النور الابيض ، ما كان أجمله حين
رأته من شباك الطائرة وهى تحوم فوق
العاصمة ليلا قدمت الى هنا ، وكم
كانت آمالها زاهية، واحساسها بالمغامرة
يجعل للحظات حياتها مذاقا حادا لذيفا .

الوحدة ، اختلطى بأسرتك أكثر ،
وذاكرى بصوت مرتفع .. أنا وقعت فى
نفس المشكل عندما كنت فى سنك ،
كنت أبكى كل يوم وأنا أتصيد أغنيات
فريد الاطرش من أية اذاعة .

قالت لها : وأنا .. بس مع حليم !!
قالت نوال : لا فرق .. كلهم
يبكون .. فى الاغانى .. لكنهم فى
الواقع يملكون قلوبا من حديد .. لى
ابن خاله .. خطبنى بعد ما تخرجت ..
أنا جئت هنا من أجله .. من أجل
تكوين بيت له مستوى .. هنا أشياء
ليست عندنا .. أول اسبوع .. كل
يوم رسالة .. وثانى اسبوع ..
رسالتين .. وبعد أسبوعين .. رسالة ،
ومر شهر الآن لا أعرف عنه شيئا ..
وطبعاً .. الشارع مزروع بالألغام !!
قالت لها فرزة ، وقد زادت عينها
الجميلتان اتساعا : ألغام ؟!!
- نعم .. ألغام آدمية .. والبعيد

لكنها الآن ، والعيد على الابواب ، تراجع ميزانية الايام الفائتة ، فتجد الحسائر فادحة .. فى الارواح ، كما تقول نشرات الاخبار عادة حين تنشب حرب !! الذين هناك ينسون ، والذين هنا لا يذكرون . وعادت تتمم : « لا فائدة .. لا مفر » .

ونقرت بنكعب القلم الاحمر بضع مرات كأنها تدفع خواطرها نحو التاهب مرة اخرى للعمل ، وجرت نظرتها بين السطور ، وما لبثت أن شعرت بارتياح عميق وهى ترى غنيمة قد اجتازت لحظة الخطر بسلام ، فقد قابلت الطفل وهو باك !! ووضعت كسرتين تحت الكاف لتؤكد لصديقتها انها تذكر القاعدة ، ولم تكتبها صحيحة بالصدفة . وأحسنت نوال بالزهو ، ووضعت تحت الكلمة علامة صح ، لتؤكد لتلميذتها أيضا انها فطنت لذكائها ، وانها قدرته . ومضت تقرأ الموضوع ، وهى تتذوق كل لفظ فيه ، وتحاول أن تجد فيه ظلا للذكاء والركة ، يرضى رأيها فى صاحبه .

وما كادت تنتهى من كراس غنيمة حتى عاودها احساس الملل والضيق ، وهى تمد يدها الى الكراسى التى بعدها ، فالقت نظرة على ساعتها التائهة بين اكوام الكراسيات ، فوجدت الوقت قد تجاوز نصف الليل ، فتمطت وهى جالسة حتى اصفرت الغرفة فى عينيها ودارت ، ثم صفت واستقرت ، فقامت تتأهب للنوم .

وتمددت نوال فى سريرها ، لكنها قبل أن تطفىء النور ، سمعت صوتا قبل أن تطفىء النور سمعت صوتا يأتى نحو غرفتها من بعيد ، عرفت فيه صوت سلوى ، ولم تمض لحظات حتى سمعت طرقها على الباب ، فاوشكت أن

تقول : ادخلى ياعقد نفسية . لكنها كظمت غيظها ، ودخلت سلوى وهى يدها بطاقة مرسوم عليها باقة من الزهر ، هشت لها نوال ، واعتدلت فى سريرها وهى تمد يدها لتأخذها ، قائلة : ماما .. حبيبتي !!

قالت سلوى بشيء من الجمود . سلامة عقلك ياماما أنت .. معايدة ماما وصلتك البارح !! فانطفت الفرحة قليلا ، لكن نظرة نزقة عبرت بعينيها لحظة .. تنبهت لها سلوى ، فعادت تقول ، وهى تبعد البطاقة عن يد نوال : كلا .. وليست من حسنى !!

فكبا نور وجهها قليلا ، وهنا مدت سلوى يدها بالبطاقة وهى تقول : بريد محلى !! قالت نوال بدهشة خفيفة وهى تفتح البطاقة : بريد محلى ؟! ومن الذى سيدكرنا هنا ؟! قالت سلوى بسخرية : ريم على القناع بين البان والعلم .. التلميذة البايخة التى افسدتها بالتدليل .. انها معى من الظهر ، وقد فكرت مرارا فى تمزيقها !!

فخطفت نوال البطاقة من زميلتها ، توقيعها تحت الاسطر القليلة ، وانصرفت سلوى ، وعادت نوال تقرأ البطاقة ، وهى تحس على نحو غامض بمعنى من معانى العيد يتسرب الى نفسها : « أستاذتى العزيزة .. من تلميذتك المخلصة ، تقبلى أجمل التهانى بالعيد . والسنة القادمة تكونى قد حققت كل أحلامك . غنيمة » . واعتدلت نوال قليلا ، ومدت ذراعها ، فجذبت القلم الاحمر من فوق المكتب ، ووضعت خطأ تحت كلمة (تكونى) وكتبت فوقها (تكونين) ، ثم ألقت بنفسها فى السرير تبحث عن النوم !!